

جمعية العروة الوثقى

أمجد ذيب غنما

بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، 2002. 282 صفحة.

يثري هذا الكتاب المكتبة العربية في موضوع، وإن كان محلياً وضيقاً، إلا إنه من أخطر الموضوعات التي شغلت التاريخ العربي منذ بداية القرن العشرين، وهو القومية العربية. فقد خرجت الأمة العربية من الاحتلال العثماني الذي دام أكثر من خمسمئة عام، ودخلت عهد الاستعمار الغربي زرافات ووحداناً لتصارع استعماراً استغلالياً شرساً كان هدفه الأوحـد الاستغلال الاقتصادي لموارد البلاد العربية، ومعاملتها كسوق رخيصة للمواد الأولية لصناعاته المتطورة آنذاك، كي تعيد إليها هذه المواد على هيئة منتجات نهائية بأسعار تتجاوز مئات المرات ما دفعه لها من أثمان بخسة لتلك الموارد.

وقد كان العرب يأملون بأنهم، بعد زوال الحكم العثماني وتقديمهم المساعدة والدعم لبريطانيا وفرنسا، سيحصلون على استقلالهم ويستعيدون حريتهم وسيادتهم. لكن ذلك لم يحدث، وقامت القوى الاستعمارية باتباع سياسات قمعية لضمان احتلالها للأراضي العربية، الأمر الذي ولد تيارات فكرية ونضالية على امتداد الوطن العربي تطالب بالاستقلال والسيادة تلبية لطموحات الجماهير العربية في الوحدة والحرية والكرامة لقاء مساعدتهم لتلك القوى الاستعمارية. لكن هذه الطموحات تبخرت، وبدأ المخطط الاستعماري تنفيذ خطته لتقسيم بلاد العرب إلى مناطق تخضع لاحتلال مباشر تحت اسم الانتداب، بدءاً باتفاقية سايكس - بيكو، وانتهاء بإيجاد دولة إسرائيل التي شكلت فاصلاً جغرافياً بين الدول العربية الإفريقية والدول العربية الآسيوية. وما زالت الأمة العربية تعاني جراء هذا المخطط حتى الآن، إذ تم إعادة ترتيب الخريطة العربية إلى دول متعددة بلغ عددها حتى الآن 22 دولة بحدود مفتعلة، وهو ما أوجع الصراعات السياسية والحدودية لحقب عدة، وأدى إلى تشرذم العرب وعدم تمكنهم من التركيز على التنمية الاقتصادية والاجتماعية السليمة. وبهذا أصبحت الدول العربية دولاً صغيرة لا حول لها ولا طول، وليس في إمكانها إيجاد الحدود الدنيا من التعاون والتنسيق السياسي أو الاقتصادي.

هذا الحال المؤلم، والذي يطلق عليه الباحثون العرب مصطلح "الزمن الرديء"، كان لا بد من عرضه قبل عرض وتحليل الكتاب القيم الذي كتبه الدكتور أمجد غنما عن جمعية العروة الوثقى التي تعتبر، وبحق، من الوجهة التاريخية الإطار الذي ترعرعت

فيه فكرة القومية العربية في وقت كانت تلك الفكرة مجرد حلم غير قابل للتحقيق. وليس هناك من شك في أن الجو الذي نشأت فيه الجمعية كان مؤاتياً، ويمكن اعتباره نوعاً من التصدي للتحديات المصيرية التي واجهت العرب في مطلع القرن العشرين من خلال تيارات التحديث والتغريب، الأمر الذي هدد الهوية العربية وهدد حضارتها وتراثها العريق.

هذه المقدمة، في تقديرنا، كانت ضرورية من أجل الوقوف الموضوعي والمنهجي على الجذور التاريخية التي أدت إلى ظهور الجمعية ونشأتها سنة 1918، وهي السنة نفسها التي شهدت نهاية الحرب العالمية الأولى وزوال الإمبراطورية العثمانية ورحيلها عن البلاد العربية، وهو ما أغفله الدكتور غنما في كتابه، على الرغم من إيماننا بوجاهته وضرورته لإعطاء الخلفية الواقعية للأوضاع التي أدت إلى نشأة الجمعية.

يضاف إلى ذلك أن حركة التتريك، التي قامت بها جمعية الاتحاد والترقي لتعم الإمبراطورية العثمانية، التي كانت تضم قوميات وشعوباً غير تركية، ومنها الشعوب العربية، كانت عاملاً محفزاً للنخبة العربية المتنورة على أن تنادي بمقاومتها والتصدي لها وإنشاء جمعية المنتدى العربي في إستنبول التي كانت تنادي بالإبقاء على الهوية العربية وباستقلال البلاد العربية واعتراف الخلافة العثمانية باستخدام اللغة العربية لغة رسمية في البلاد العربية الخاضعة للخلافة. وقد تصدت القوى التركية القومية لهذه الأفكار التي تبنتها الشعوب العربية، الأمر الذي أدى إلى نزاع مسلح استخدمت فيه الخلافة أقصى أنواع التعذيب والقمع، ونصبت في دمشق وعاليه المشانق حيث أعدمتم نخبة كريمة من المناضلين الشرفاء الذين استشهدوا من أجل العروبة والحرية والاستقلال. وكما نود أن يضمن الدكتور غنما بعض هذه الخلفية التي توضح الأسباب التي من أجلها أسست الجمعية، والتي تركزت على الحفاظ على الهوية والانتماء العربيين بعد حملة التتريك التي مارسها الخلافة العثمانية قبل زوالها ورحيلها عن البلاد العربية. لكن هذا لا يمنع القول إن الدكتور غنما، وهو الطبيب المتمرس، لا يمكنه أن يقوم بدور المؤرخ ويتولى تحليل الظروف التاريخية. وقد يكون محقاً فيما ذهب إليه إذ اكتفى بتشخيص أعراض المرض، وهو جهد يشكر عليه ولم يقيم به أحد سواه.

يقسم الدكتور غنما أنشطة جمعية العروة الوثقى إلى ثلاث مراحل: الأولى، المسيرة الأدبية الخطابية التي امتدت حتى بداية الثلاثينات من القرن العشرين؛ الثانية، المسيرة القومية التي امتدت حتى نهاية الأربعينات؛ الثالثة، مرحلة بداية المسيرة السياسية. وهو تقسيم يعكس واقع أنشطة الجمعية كما حدثت وتطورت.

ولا بد من التساؤل عن السبب الذي حدا بالجمعية على البدء بالمسيرة الخطابية في

وقت كانت المرحلة التاريخية تمثل صراعاً قومياً ضد الاستعمار أخذ أشكالاً مسلحة ومعارك نذكر منها "ميسلون" وغيرها، وعن سبب التركيز على الخطابة والتشديد على لغة الضاد في المادة الثانية من قانون الجمعية، التي نصت على أن غاية الجمعية هي "ممارسة الخطابة والكتابة باللغة العربية الفصحى ودراسة أنظمة الجمعيات وكيفية المحافظة عليها". وقد ذكر الدكتور غنما أن الجمعية تقيدت بهذا النص أعواماً طويلة حيث كانت تعقد المناظرات والندوات، ويقوم الأعضاء بالخطابة وإلقاء الأشعار إلى درجة أن العضو إذا لم يتكلم في الجمعية مرة واحدة في الفصل الواحد على الأقل، سواء عن طريق الخطابة أو المباحثة أو التبرع، تسقط عضويته من الجمعية.

نحن لا نعلم أسباب هذا التركيز على هذا الهدف بصورة قاطعة، كما أننا نزعم أن الدكتور غنما هو الآخر لا يعلم عن تلك الأسباب. لكن لعل ما حدث في الكلية السورية البروتستانتية في بيروت في مطلع القرن العشرين، من استقالة الدكتور أدون لويس وفريق من أساتذة الكلية احتجاجاً على إلقاءه خطبة في إحدى حفلات التخرج عن نظرية داروين واعتراض الآباء الأولين عليها واعتبار النظرية لا تليق بمعهد تبشيري ديني إذ إنها تدعو إلى الإلحاد، يفسر ذلك. وقد أدت هذه الاستقالات لمجموعة من الأساتذة إلى استبدالهم بآخرين، وهو ما ولد مشكلة. فقد كان التدريس في الكلية قبل أن تصبح جامعة (الجامعة الأميركية) يتم باللغة العربية، وبغياب الدكتور لويس ومجموعته الذين كانوا يتقنون اللغة العربية أصبحت اللغة الإنكليزية لغة التدريس الرسمية. إنني مدين بهذه المعلومات للدكتور أسامة الخالدي الذي أوضحها لي منذ عدة أعوام عندما تباحثنا في شؤون الجامعة وشجونها.

لعل هذا الواقع الجديد ولد في نفوس مؤسسي الجمعية هواجس وخوفاً من اندثار اللغة العربية وعدم استعمالها في الكلية، الأمر الذي حملهم على ضمان استعمالها وممارستها عن طريق الخطابة. والحق يقال إن الفضل يعود لهؤلاء النفر من المؤسسين في أن متخرجي الجامعة يعتبرون، قياساً بمتخرجي الجامعات العربية الأخرى، الأقوى في اللغة العربية تحدثاً وكتابة. والدليل على ذلك أن من متخرجيها من قاد الجماهير والأحزاب والجمعيات وألهم المشاعر بفصاحته وتمكنه من اللغة، إضافة إلى شخصيته القيادية المميزة.

هذا وقد أفاض الدكتور غنما في عرض وسرد أنشطة الجمعية في المسيرة القومية؛ وهي المرحلة الحاسمة، في تقديرنا، إذ شهدت تطوراً فاعلاً في الفكر العربي، كما شهدت ساحة الجامعة آنذاك تيارات سياسية متعددة نشيطة كان أكثرها نشاطاً حركة القوميون العرب التي استقطبت الأغلبية من شباب العروة وجمعتهم في حلقات سرية متعددة تجتمع في الخفاء بشكل منتظم. كما أنه يجب ألا ننسى أنه في إبان هذه الفترة أصبح الدكتور قسطنطين زريق مستشاراً للجمعية، الأمر الذي أعطى زخماً ودفعاً نحو

توجهها في الاتجاه القومي الصريح والسليم. ويمكن اعتبار هذه المرحلة بمثابة الإطار النظري للفكر القومي العربي وتمهيداً لبداية التنظيمات السياسية العربية التي تبلورت بصورة واضحة في المرحلة الثالثة، التي تعتبر مرحلة التطبيق والتنفيذ والممارسة الفعلية للنشاط السياسي والحزبي بصورة فعالة ومؤثرة تجاوزت حدود الجمعية والجامعة إلى الأقطار العربية الأخرى. وقد صاحب هذه المسيرة انبثاق ثورة 23 تموز/يوليو وظهور الناصرية كحركة قومية عربية تنادي بالحرية والاشتراكية، وكذلك ظهور حزب البعث العربي الاشتراكي والحزب السوري القومي الاجتماعي كحزبين سياسيين متكاملين قاما بدور مميز في الحياة السياسية في دنيا العرب، وما زال.

لا نعلم أن هناك، على امتداد العالم العربي، جمعية قامت بما قامت به العروة من إرساء القواعد والثوابت القومية الفكرية، وأفرزت حركات وتنظيمات، وكانت بمثابة البوتقة التي صهرت الاتجاهات العربية كافة. ومن المؤلم أن تنتهي العروة في سنة 1955 تلك النهاية المأساوية في وقت كانت حركة النضال العربي في أمس حاجة إلى مؤسسة تقوم بإعداد الأجيال العربية الصاعدة إعداداً قومياً سليماً يقوم على التعددية واحترام الرأي الآخر بعيداً عن الانغلاق والتحجر. والأهم من ذلك أن تواصل تقليدها التاريخي الذي درجت عليه في تخريج كواكب من القادة الذين أدوا دوراً مؤثراً ما زالت آثاره تتفاعل في الحياة العربية بصورها وأشكالها كافة.

إنني لا أزال أذكر أيامي في الجامعة وفي العروة حيث أتيتهما من بيئة مغرقة في المحافظة لأجد نفسي في جو وبيئة منفتحة ومتعددة المذاهب والنحل والانتماءات والطوائف، حيث الطلاب من أجواء اجتماعية مختلفة لكن يجمعهم شيء واحد، هو جو التسامح والحرية والاحترام الذي كان يسود الجامعة والجمعية، وحيث كان الخلاف في وجهة النظر لا يفسد للود قضية. هذا الجو بكل أسف هو ما نفتقده اليوم في مؤسساتنا وجامعاتنا ومعاهدنا.

ليس في وسع من يطالعون كتاب العروة، ولا سيما أولئك الذين لهم باع في العمل البحثي والأكاديمي، إلا أن يشعروا بالجهد المضني الذي بذله المؤلف في جمع المعلومات والوثائق، وبالوقت الطويل الذي أمضاه في البحث عما ضاع، بكل أسف، من تلك الوثائق والمعلومات وهو كثير. وعلى الرغم من ذلك، فقد جاء الكتاب شاملاً واضحاً، معطياً صورة واقعية للعروة وتاريخها وأنشطتها؛ جاء موثقاً ومنظماً، عاكساً الموضوعية والمنهجية التي اتبعها المؤلف في الكتاب.

لكن ذلك كله لا يكفي. فلا بد من أن يوجد من يحمل المشعل من الدكتور غنما ليقوم بكتابة وتحليل ما غفل عنه، أو ضاعت وثائقه، من تاريخ هذه الجمعية العريقة التي شكلت في التاريخ القومي العربي مرحلة لا بد من دراستها والتعمق فيها. وكفي

الدكتور فخرًا أنه أرسى اللبنة الأولى وفتح الطريق، ونأمل بأن يكون هناك من يكمل المشوار ويسد الفجوات التي لم يتمكن المؤلف من سدها، إمّا لخروجها عن نطاق اختصاصه، وإمّا لضياع معلوماتها ووثائقها.

نقطة أخرى لا بد من ذكرها ولم تذكر بتوسع في الكتاب، وهي أن الجمعية لم تكن مقصورة على النشاط السياسي والقومي فحسب، بل تعدت ذلك إلى أنشطة ثقافية أخرى كان أبرزها النشاط الفني، الذي شاركت فيه في مطلع الخمسينات من القرن الماضي، والذي يمكن اعتباره من أكثر الأنشطة ثراءً وفعالية. فقد شمل ذلك النشاط تمثيليات وطنية وحفلات فنية قامت بها اللجنة الفنية آنذاك على مسرح "وست هول" حيث لم يكن في لبنان مسرح لائق لفن رفيع. وقد توج هذا النشاط بتقديم اسكتشات غنائية كان أبرزها اسكتش "ينبوع السعادة" للأخوين رحباني وغناء فيروز مع فريق من طلاب الجامعة وطالباتها. كما أنه أشرف على إخراج التمثيليات نخبة من ألمع مخرجي وفناني "محطة الشرق الأدنى" الإذاعية، نذكر منهم صبحي أبو لغد، وغانم الدجاني، وعبد المجيد أبو لبن، وكامل قسطندي، وصبري الشريف. وقد جاءت هذه الأنشطة لتجعل من مسرح "وست هول" آنذاك مسرحاً لبنانياً بمستوى عالٍ قدمت عليه، ضمن ما قدم، روايات متميزة للروائي فريد مدور، أذكر منها "زنوبيا - ملكة تدمر".

وللأسف فإنه ليس هناك من سجل أو مستندات يمكن العودة إليه أو إليها لدراسة الأنشطة الأخرى، والتي لم تكن أقل أهمية من النشاط السياسي. والدكتور غنما معذور في عدم تناولها نظراً إلى نقص المعلومات وعدم توفر الوثائق.

ختاماً، إنني أشيد بالجهد الكبير الذي قام به الدكتور غنما إذ أثرى المكتبة العربية بكتابه العروة الوثقى. والمجال مفتوح أمام من يريد أن يدلي بدلوه، فالطريق ممهد والمعلومات كثيرة وإن غاب بعضها، ونأمل بأن يكون ما غاب هو القليل. وستظل العروة الوثقى، الغائبة حالياً، حاضرة في وجدان كل من عرفها رمزاً للنضال العربي، ونبراساً للقومية العربية. وستظل جزءاً غالياً وعزيزاً من تاريخنا العربي المعاصر وتراثنا القومي الذي تكالبت عليه القوى المعادية لدثره ومحوه وإزالته من الخريطة لتصبح أجيالنا الواعدة من دون ذاكرة ومن دون ماضي. والأمل معقود على هذا الجيل الواعد، جيل الانتفاضة، بإفشال المخطط العدواني وتصديه القومي الصامد بعناد وصبر لكل ما يحاك من دسائس ومؤامرات لأمتنا العربية الماجدة التي ظلت شامخة آلاف الأعوام على الرغم من المحاولات التاريخية المتكررة لشطبها من جغرافيا المنطقة وتاريخها.

عدنان نور الدين بسيسو

أحد قادة جمعية العروة الوثقى

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
<http://www.palestine-studies.org/ar/mdf>